توظيف الاستعمار الفرنسي للرحلة الجزائرية (القرن 19م) و توجيهها وفقا لمنطقه الثقـافي و الفكـري

عوادي مسعود.

أستاذ بجامعة سكيكدة

ملخص:

منذ أن وطأت أقدام المحتل أرض الجزائر عام 1830, ولدعم غزوه العسكري واستكمال سيطرته على البلاد, اعتمد على الغزو الفكري, فبادر إلى استئصال الهوية الثقافية الجزائرية, واستبدالها بالثقافة الفرنسية, ولإنجاح مهمّته اعتمد على عدّة وسائل, كإدخال التعليم الفرنسي إلى الأقاليم المحتلّة, وتوظيف الرّحلات الجزائرية لخدمة منطقه الفكري. ولإدراكه للدور الذي يمكن أن تؤدّيه الرّحلة في خدمة مساعيه الاستعمارية, وضع خطّة مدروسة, تتمثل في خلق نوع جديد من الرّحلة يكون عبارة عن بوق يشيد بحضارته وبقوّته, فسارع إلى توجيه رحلات جزائرية إلى فرنسا يكون هوّ الموجّه لمسارها, والمحدّد لمهامها, والمخطّط لأهدافها, وذلك من أجل التأثير على عقول أصحابها بعد أن يطّلعوا على الحضارة الفرنسية وقوّتها المادية والفكرية, ثم يعودون إلى الجزائر منبهرين بها ومرغّبين فيها, ومنادين بالاستسلام إلى فرنسا.

وهذه هيّ الأهداف التي كان يُنتظر أن تحقّقها تلك الرّحلات. فمن خلال استقراء نصوصها نجد أنّها كانت موجّهة لتحقيق أغراض معيّنة, فالمستعمر كان يتحمّل نفقاتها ويرسم

مسارها ويوجّه صاحبها من خلال دفعه إلى زيارة أماكن معيّنة, ثم يتابع أفكار كاتب الرّحلة وما يصدر عنه من مواقف, فيقوم المستعمر بنشرها وترويجها إن كانت تتلاءم مع مشاريعه الاستعمارية, وتتوافق مع منطقه الفكري, وبذلك أصبحت تلك الرحلات يُكتب فيها بوحي النظام الاستعماري, وأصبحت ذات صبغة سياسية مهمّتها خدمة المصالح الدّعائية الاستعمارية الرّامية إلى جعل الأهالي يولعون بمحاسن الخضوع للسيطرة الفرنسية, ثم تبنّيهم تدريجيا لهذه السيطرة طواعية.

قبل أن نتطرّق إلى موضوع الرّحلات الجزائرية في القرن 19م، نعطي إطلالة على أوضاع الجزائر العامّة خلال هذا القرن، خاصّة الثقافية والسياسية منها، كونها أثّرت في تحديد طبيعة وخصائص الرّحلة الجزائرية وفي تحديد مسارها، فالجزائر في هذا القرن عرفت فترتين سياسيتين مختلفتين، فترة ما قبل 1830م، والتي كانت فيها عبارة عن إيّالة عثمانية تتمتّع باستقلال داخلي، وفترة ما بعد 1830, عندما وقعت تحت الحكم الاستعماري الفرنسي, وكانت

لكلّ مرحلة تأثيراتها على أوضاع الجزائر السياسية والاجتماعية والثقافية.

ففي فترة الحكم العثماني للجزائر، خاصّة في سنواته الأخيرة، انحصر النّشاط الثقافي، لأن النظام ركّز اهتمامه على الجانب العسكري والجبائي، ولم يُول اهتمامًا كافيًا للجانب الثقافي، باستثناء بعض الدّايات الذين شجّعوا هذا الجانب، أمثال الدّاي محمّد بن عثمان باشا، وصالح باي قسنطينة، ومحمّد الكبير باي وهران [1]. وباستثناء تلك المحاولات, فإنّ المهمّة الثقافية في الجزائر تولاّها الجزائريون بأنفسهم، عن طريق مساجدهم التي تكفّلت بالدّور التعليمي والفكري إلى جانب الدّور الدّيني، ومن خلال ما استفاده البعض من تنقّلاتهم في البلدان الإسلامية لطلب العلم، وبفعل عوامل خارجية في مقدّمتها هجرة الأندلسيين إلى المغرب، واحتكاك بعضهم الآخر بالأوربيين عن طريق التجارة [2]، وعن طريق الرّحلات التي قام بها البعض إلى أوربا لدراسة العلوم الحديثة، فاحتكوا بمعالم النّهضة الثقافية الأوربية [3].

أمّا فيما يخص أدب الرّحلة كأثر مكتوب، فقد شهد في العهد العثماني خاصّة مع أواخر القرن 18م وبداية القرن 19م،

نشاطًا معتبراً، عكسته نماذج معتبرة بمادّته ورجاله، فالجزائريون في هذا العهد وعلى غرار الرحّالة العرب, قد أسهموا بشكل كبير في هذا المجال، لا سيّما تلك الرّحلات الدّينية التي كان يُقصد من خلالها لقاء شيوخ الطّرق الصوفية وعلماء الدّين، أو بقصد أداء فريضة الحج، ومن أشهر روّاد هذا المجال في ذلك الوقت (الورتيلاني) [4]، و(أبو راس النّاصر الجزائري) [5]، إضافة إلى الرّحلات الاستكشافية والاستطلاعية, كرحلة (الأغواطي) [6]، في شمال إفريقيا والسّودان [7].

وفي عام 1830م، وقعت الجزائر تحت الحكم الاستعماري الفرنسي، الذي سخّر كل طاقاته لضرب البنى التحتية السياسية والاجتماعية الجزائرية، خاصّة الثقافية منها، فبادر إلى تهديم المساجد والمدارس وتمسيح وفرنسة ما تبقى منها، ومصادرة وسائل المعرفة والتّعليم الجزائرية، وبانتهاء فترة مقاومة الأمير عبد القادر وما تلاها من نفي لرجال العلم والأدب، وهجرة البعض الآخر وانزواء البقية، نزل الظّلام الدّامس على الحركة الفكرية والثقافية، وتسرّب اليأس إلى النّفوس الكسيرة التي ترى دمار الاحتلال

يمتدُّ إلى كل شيء، حتى حلّ الرّكود الثقافي الذي ازداد بتوغّل الاحتلال، فدخلت البلاد في عزلة ثقافية حادّة، وسرعان ما تحوّل جانب كبير من المجال الثّقافي إلى بوق يخدم الاستعمار، ويشيد بفضائله الحضارية، وهو ما جسّدته نصوص بعض الرحّالات الجزائرية التي وجّهها الاحتلال خاصّة في النّصف الثاني من القرن 19م، التي أصبحت ذات طابع سياسي، ومهمّتها خدمة المصالح الدّعائية للسياسة الفرنسية, الرّامية إلى تطويع الجزائريين وإخضاعهم [8].

سعت فرنسا منذ احتلالها للجزائر إلى تلميع صورتها في أعين الجزائريين، واستعمار عقولهم من خلال إبهارهم بالتفوّق الحضاري الفرنسي، واعتمدت في هذه العملية على وسائل عدّة، كإدخال التّعليم الفرنسي للأقاليم المحتلة، وإرسال بعض الجزائريين إلى فرنسا ليطّلعوا على تمدّنها، ثم زيّنت هذه العملية بشعارات الرّسالة الحضارية المقدّسة، وهي كلّها مساع تهدف إلى جعل الأهالي يولعون بمحاسن الخضوع للسيطرة الفرنسية ثم تبنّيهم تدريجيًا لهذه السيطرة طواعية [9].

أدرك المحتل، وبحكم ما لديه من وسائل السيطرة والتخطيط الجيوسياسي أهمية الرّحلة ودورها في مساعيه الاستعمارية، خاصّة أنه اطّلع على الدّور الذي لعبته الرّحلة الإسلامية في العهود السابقة من تأثير على الرأي العام، وتحديد نظرة المسلم للآخر، لذلك سارع المحتل إلى خلق شكل جديد من الرّحلة، يكون فيها الموجّه لمسارها، والمحدّد لمهامها، والمخطّط لأهدافها، حتى تساعده على تكريس هيمنته الاستعمارية [10]، وبصورة أوضح فإن المحتل جنّد أدب الرّحلة لتنفيذ مخطّطه التالي :

- ترسيخ أطروحة الفارق العلمي والثّقافي بين المستعمر وبين الخاضع للاستعمار، وغرس فكرة التفوّق الذهني للجنس الفرنسي.

- نشر فكرة نزاهة الفرنسي، وتميّزه بالعدل وحسن الخلق، والتحضّر وبالتالي ضرورة إتّباعه وتقليده.

- الترويج لمستوى الفارق العسكري والإمكانات التي يتوفّر عليها المستعمر، وبالتالي عدم جدوى محاربة ذلك الفرنسي الذي لا يُقهر، بل لابدّ من الخضوع له.

- إنشاء طبقة جزائرية موالية للاستعمار بكسب ولاء أفرادها من خلال إرسالهم إلى فرنسا واستقبالهم بحفاوة، وإقامة المآدب لهم ومنحهم الأوسمة [11].

بدأت الرّحلة الجزائرية نحو أوربا في البداية باتّجاه فرنسا، وكانت تتم بتشجيع إدارة الاحتلال الفرنسي وتنظيمها على نفقتها، وكانت هذه الإدارة ترعى أصحاب تلك الرّحلة وتدرّ عليهم المناصب، وتهيّأ لهم الرّحلات إلى فرنسا، بهدف تجسيد خطّة مدروسة تتمثل في توجيه أفكار الجزائريين وإقناعهم بالخضوع إلى فرنسا صاحبة الحضارة والقوّة [12]، فالسلطات الفرنسية قد اعتادت إرسال بعض الأعيان الجزائريين إلى فرنسا من أجل التأثير على عقولهم بعد أن يشاهدوا قوّتها وتمدّنها، ثم يعودون إلى الجزائر مبهرين ومندهشين بالتقدّم الحضاري الفرنسي، ومبشّرين ومرغّبين به، ومنادين بالاستسلام إلى الدّولة الفرنسية لأنها أمّة تسعى إلى بث الحضارة في بلدهم (الجزائر)، وليس استعمارهم، وهذه هيّ الأهداف التي كان من المنتظر أن تحقّقها تلك الرّحلات التي أشرف عليها المستعمر[13]، فنحن عندما نتأمّل كتابات هؤلاء الرحّالة نجدهم يصوّرون فرنسا على أنها بلد علم وعدالة وحرّية وتقدّم، وغيرها من المظاهر

التي توحي بالدّعوة والتشجيع على الخضوع لفرنسا والارتباط بسياستها [14].

وهذا ما يدفعنا إلى القول بأنّ الرّحلة الجزائرية الموجّهة في عهد الاحتلال كان يُكتب فيها بوحي من الحكم الاستعماري الذي سخّرها أصلاً للإشادة به وبحضارته, كما أن هذه الأجواء الاستعمارية هي التي حدّدت خصائص وأهداف تلك الرّحلات [15].

وتجدر الإشارة إلى أن سياسة الإدارة الفرنسية في توجيه رحلات جزائرية لخدمة أغراضها الاستعمارية، هي سياسة كان قد افتتحها الجنرال " كلوزيل " [16]، ثم قلّده فيها الحكّام الموالون له، والذين سعوا إلى خلق طبقة جزائرية مصبوغة بالثقافة الفرنسية، تكون كفيلة بإنجاز مخطّطات الاحتلال [17]، وفي باريس كان الأعيان الجزائريون يلقون استقبالاً خاصًا، فمن أجلهم تُصفّف الموائد، وتُلقى الخطب وتُقام المعارض، وتُنظّم الزيارات لأماكن مختارة ومحدّدة مسبقًا [18]، وهذا ما سنلمسه بوضوح من خلال عرضنا لنماذج من تلك الرّحلات التي أشرف عليها المحتل الفرنسي وحدّد مسارها وأهدافها، ثم

قام بنشر وترجمة ما عاد به هؤلاء الرحّالة من انطباعات, الذي يصبّ معظمها في التبشير بالحضارة الفرنسية والتهليل بتقدّمها المادّي والفكري، وهو ما قامت به جريدة المبشّر الحكومية [19]، التي بادرت إلى نشر هذه الرّحلات حتى يطّلع عليها الجزائريون ويتأثروا بأفكارها.

- نماذج من الرّحلة الجزائرية الموجّهة خلال القرن 19 م.

- الرّحلة الصيّامية [20] لسليمان بن صيّام [21] (1852) .

تدخل هذه الرّحلة في إطار الرّحلة السياسية، كُلّف بها سليمان بن صيّام مع وفد من رؤساء العرب الجزائريين، زاروا من خلالها باريس عام 1852، أمّا سبب الرّحلة فقد جاءت تلبية لطلب حاكم الجزائر (راندون) [22]، لحضور حفل أقيم في باريس بمناسبة تنصيب نابليون الثالث ملكًا على فرنسا، وهو ما صرّح به ابن صيّام عندما قال: " أمرني من يجب الامتثال لأمره، وهو والي دايرة الجزاير، البطل الهمّام، والأسد الضرغام، سعادة السيد القوفرنور[23]، راندون ... وتركت مليانة دار السكنى إلى الجزاير الغرّاء، ووجدت بها جماعة من رؤساء العرب مأمورين مثلي بالسّفر لهاتيك البقاع [باريس]، ..." [24]، ومن خلال هذا النّص, يتّضح لنا أن هذه

الرّحلة كانت موجّهة المسلك، ومحدّدة الأهداف من طرف الإدارة الفرنسية.

دامت رحلة ابن صيام خمسة وثلاثون يومًا، فالوفد انطلق من الجزائر تجاه فرنسا في 25 أفريل 1852، وكانت أوّل مدينة نزل بها سليمان بن صيام هي مدينة (سيط Cette)، ثم اتّجه إلى مونبيليMontpellier ، ثم ليونLyon ، وبعدها مدينة باريس، ليستكمل رحلته في 27 ماي 1852. وفي الحقيقة فإن مسار هذه الرّحلة والمدن والمواقع التي تمّت زيارتها كانت محددة مسبقًا، فمن خلال كلام ابن صيام نفهم بأنه كان يتلقى الأوامر، ومسيّر في اتجاهاته، لهذا نجده يقول مرارًا: " خرجنا من المحفل الذي أنزلونا به ... ثم مشوا بنا ... وأمرونا بالمشي" [25].

شرع ابن الصيام منذ أن وطأت قدماه أرض فرنسا، بوصف كلّ ما تقع عليه عينه، فأبدى إعجابا شديدًا بسياسة فرنسا في شقّ الطرق البرّية وشبكات السكك الحديدة، وخطوط الهاتف، وإنشاء المنتزهات والأبنية الشامخة والمتاحف، وعبّر عن ذلك قائلاً: "... وكان سفرنا منها في النّهر في مركب الدخّان، وذلك النّهر على الضّفة المتقدّمة من

العرض والرّصايف والقناطر وتعديد السفن الدخّانية، وشواهق القلوع، ونحن نرى تلك العجائب إلى أن وصلنا إلى مدينة ليون"، ويواصل ابن صيام تعليقه على كل شيء يندهش منه وينبهر به، قائلاً : " وهذا من أغرب ما رأيت، والأمر للّه من قبل ومن بعد.." [26]، وهو بذلك عبّر عن عجزه التّام لإدراك تلك الإنجازات التي بدت له سحرية وخيالية.

تطرّق ابن الصيام كذلك إلى ذكر حسن الأنظمة السياسية الفرنسية، التي وصفها بأنها قائمة على العدل: " لو اتّصفوا بالجور، وعدم الرّفق بالرّعية، لما قدروا على تحصيل بعض الغرض من عمارة البلدان" ، كما أشار أيضًا إلى حبّ الفرنسيين للعلوم والبحث والاختراع، فقال: " وكل صاحب فن من الفنون يجب أن يبتدع شيئًا لم يُسبق إليه ... حتى أن عامّتهم أيضًا يعرفون القراءة والكتابة " [27]، وهنا نجد أن ابن الصيّام قد تفطّن إلى جانبين أساسين لبناء الحضارة هما العدل والعلم، وأدرك أن شيوعهما لدى الفرنسيين أوصلا أمّتهم إلى ما هي عليه من تقدّم.

وبشكل عام، فإن الأفكار الأساسية التي تضمّنتها رحلة ابن صيّام قد تمحورت حول الإعجاب بالحضارة الأوربية

الفرنسية خاصّة، من مظاهر التمدّن العمراني، والتطوّر الصناعي والتنظيم السياسي، وهو ما يؤكّده نجاح الهدف السياسي المرجو من وراء هذه الرّحلة، التي خطّط لها خبراء الاحتلال، فصاحب الرّحلة كما يبدو عاد إلى بلاده مبهورًا بما رآه ومبشّرًا بالسياسة الفرنسية، التي خيّل له بأنها سوف تجد امتدادا لها في الجزائر.

- رحلة السعيد بن الشريف[28] 1852 (الرّحلة الخيرية فيما عاينه ناظمها ببرّ فرنسة).

رافق ابن الشريف في رحلته هذه الوفد المتكوّن من أعيان قسنطينة وسكيكدة والعاصمة الذي اتّجه نحو فرنسا، لحضور المهرجان الضخم الذي أقيم احتفالاً بتنصيب نابليون الثالث عام 1852، وهو الوفد نفسه الذي كان ضِمنه سليمان بن صيام، أمّا عن سبب رحلته فقد كان تلبية لطلب السلطات الفرنسية في الجزائر، التي كلّفته بتسجيل خواطره ومشاهداته خلال تواجده بفرنسا، واستجاب ابن الشريف لهذا الطلب حسب قوله عن مضض: " ... أشار عليّ بعض الأمراء المحبّين بتسطير ما نشاهد ببرّ فرنسا، وما نعاينه من الأمور الغريبة والأشياء العجيبة فأجبته لمراده خشية الملام ..."

(29). نفهم من خلال هذا النّص بأنّ ابن الشريف يحاول أن يدفع عن نفسه التّهمة التي سوف تلحق به، على أنه كان يصبو إلى الإشادة بحضارة فرنسا وسياستها من تلقاء نفسه (30).

ومن الواضح كذلك من خلال هذا النّص بأنّ ابن الشريف جاهر مباشرة وبصراحة بأن هذه الرّحلة جاءت تلبية لطلب السلطات الفرنسية, التي أمرت أعضاء البعثة بتدوين مفاخر وجوانب قوّة فرنسا، وهذا ما يؤكّد ما أشرنا إليه سابقًا، أي أن الاستعمار أشرف على هذه الرّحلات ووجّهها، وفقًا لما يحقّق أهدافه الاستعمارية.

بعد حديث ابن الشريف المطوّل عن أسباب رحلته، بدأ مباشرة بذكر محاسن الحكم الفرنسي، القائم حسبه على العدل الذي هو أساس الأمن والاستقرار، فأكّد على أن الملك يدوم بعدل الحاكم والوزراء وأفراد السلطة مع مواطنيهم، "... فانظر أيها الغافل بعين الاستبصار، وتأمّل تأمُّل ذي اعتبار، تجد سبب نصرة الدّولة الفرنساوية العدل... لأن عدل السلطان أنفع من خصب الزمان، وهؤلاء الفرنساوية جمعوا ما بينهما لكمال عقولهم وحسن سياستهم، ورأوا أن صلاح الملك يكون

بالرّفق بالرّعية، والتودّد إليهم بالعدل، وأمن السبيل، وإنصاف المظلوم... وما حصل من رغبة أهل هذه العمالة في طاعة الدّولة الفرنساوية إلاّ لوقوفها على العدل بأحكام شرعية، وقوانين مؤسّسة، حيث أن الملك بالجنود، والجنود بالمال، والمال من البلاد، ولا بلاد إلا بالرّعايا، ولا رعايا إلاّ بالعدل..."، و ليثبت رأيه هذا ضرب أمثلة من التاريخ الإسلامي، وهو بذلك يشير إلى أن العدل ليس محصورًا لدى الفرنسيين فقط، وإنّما هو أيضًا من صفات الحكم في الإسلام [31].

بالإضافة إلى حديث ابن الشريف في مقدّمته عن العدل فقد أشاد كذلك بالعلم، وأشار إلى دوره الحضاري، وأكّد قدسيته في الشّرع الإسلامي الذي أمر بطلبه والاجتهاد في كسبه، فقال في هذا الصدد: " وعليه فإن الإجماع بعد الكتاب والحديث، أنّ خير الأمور العلم، لأن ثمرته في الدّنيا والآخرة، وأنّ فضله في كل زمان ومكان مشهود ... وأنّ الحكمة ضالّة المؤمن يأخذها أينما وجدها..." [32]، ومن خلال هذه الشّواهد والحجج التي اعتمدها ابن الشريف، يتبين لنا تأثّره بالجانب الدّيني في حديثه عن العدل والعلم،

فهو دائمًا يرجع إلى الأحكام الشرعية والتاريخ الإسلامي كي يثبت آراءه ويبرّرها [33].

وفي إطار حديثه عن أهمية العلم كذلك، ذهب ابن الشريف إلى انتقاد بعض المتعصّبين الجزائريين - حسب رأيه - الرّافضين للتعليم الفرنسي، والالتحاق بالمدارس الفرنسية، لأنّهم كانوا يعتبرون ذلك خروجًا عن دينهم، كما أكّد على أن طلب المسلم للحكمة من عند غير جنسه لا ضرر فيه، خاصّة إن كانت غايتها تحقيق المصلحة والمنفعة العامّة، وهو ما دفعه إلى نبذ هؤلاء الجزائريين الذين يعارضون تعلّم اللغة الفرنسية التي هم بحاجة ماسّة إليها، غير أن ابن الشريف، كما هو واضح، لم ينظر إلى اللّغة الفرنسية كوسيلة لفهم الثقافة والعلوم الحديثة، وإنّما اعتبرها كأداة للتفاهم والتواصل مع الفرنسيين, وأنّها لغة المتفوّق. كما انتقد ابن الشريف موقف بعض الجزائريين الرّافضين للعلاج في المستشفيات الفرنسية، ورفضهم لكل جوانب سياستها، وإدارتها [34]، غير أن ابن الشريف لم يوضّح سبب إعراض الجزائريين لكل ما يقدّمه لهم الاستعمار, وببساطة فإن الجزائري تيقّن بأن ذلك الاستعمار الذي كان يدّعي بأنه

يرغب في نشر الحضارة في الجزائر، كان متناقضًا في منظوره وفي أسلوبه، فهو عمد إلى إفقار الجزائريين وتجهيلهم ثم يريد بعد ذلك أن يدمجهم في الحضارة، التي أراد أن يبنيها على استئصال هوية الجزائريين واستبدالها بالثقافة الفرنسية. كلّ ذلك جعل من الشّعب الجزائري يتّخذ موقفًا معاديًا للأفكار التي يريد المستعمر فرضها، وهي مواقف بيّنت لنا موقف الشّعب الجزائري آنذاك من المحتل الفرنسي ورفضه لكل ما يقدّمه له [35].

واصل ابن الشريف ذكر محاسن السياسة الفرنسية، وأشاد بالمشاريع التي أقامتها في الجزائر، وقام بمقارنتها مع ما رآه في فرنسا من تقدّم، وهي إشارة منه إلى الفارق الكبير بين ما تحقّق من إنجازات بالجزائر مقارنة بما أنجز بفرنسا [36] ، فما قامت به إدارة فرنسا في الجزائر حسبه لا يزال بعيدًا عمّا حقّقته في بلادها، وهي مقارنة توحي بوعي ابن الشريف لواقع بلاده وتخلّفها، وواقع فرنسا المتقدّمة، لهذا تمنّى لو أن تكون بلاده على قدر من الرّقي والتطوّر الموجودين في فرنسا [37].

بعد هذه المقدّمة الطويلة، يعود ابن الشريف إلى الحديث عن مسار الرّحلة، ووصف مشاهداته بدءًا من ركوبه للباخرة، وبمجرّد وصوله إلى فرنسا، بدأ في وصف المسالك والمدن التي مرّ بها والمشاهدات التي رآها فتحدّث عن القطار (كرّوسة الدخّان)، والسكك الحديدية، وأبدى اندهاشًا كبيرًا بهما، ليواصل بعد ذلك وصف الأماكن التي زارها وشاهدها، ومن خلال وصفه لمشاهداته نلمس لديه دقّة الملاحظة، فهو لا يمرّ بجديد إلاّ وسجّله وعلّق عليه، متمنيًا بأن يستفيد مواطنوه من ذلك، فنجده يقول في كل مرّة يصف أشياء تعجبه أو تؤثّر فيه : " هكذا الدّول التي تسعى في فوايد رعاياها وإلاّ فلا ... "[38]، غير أنّ ابن الشريف قد نسي أو تناسى متعمّدا بأنّ فرنسا التي مدحها هيّ التي جعلت بلاده متخلّفة وتعاني من السياسة الاستعمارية الفرنسية.

وأثناء وصوله إلى باريس، بدأ في وصف أخلاق وعوائد الباريسيين، وقد يكون بذلك من أوائل الرّحالة الجزائريين في ذلك العهد الذين تعمّقوا في دراسة سلوكيات وطبائع الأفراد والمجتمعات[39]، وقد وصف أهل باريس بالذّكاء ودقّة الفهم، وحبّهم للبحث في العلوم والاستكشاف، وأنهم

سبّاقون إلى الاختراع : " فهم مولعون بحبّ المعرفة والتدليل على ما يقولون..."، كما أشار إلى حبّهم للعمل والإخلاص فيه، كل هذا دفعه إلى مقارنتهم بالمسلمين فقال: " فانظر كسلنا وعجزنا وإهمالنا ... وعلى كل حال فإن الكسل وكثرة النوم يبعدان عن اللّه، ويورّثان الفقر..." [40]، ثم تحدّث عن المرأة الفرنسية وما هيّ عليه من تحرّر, غير أنه من جهة أخرى انتقد سيطرتها واختلاطها بالرّجال، وخروجها عن طبيعتها وفسقها، ثم قام بعرض حال المرأة في العالم الإسلامي وما تعانيه من سوء المعاملة [41].

يبدو أن ابن الشريف كان أكثر تحليلًا لمشاهداته، وفهمًا للمجتمع الفرنسي من ابن الصيّام، إلاّ أن السطحية في أفكارهما والتشابه في أغراضهما (خدمة أطروحة المستعمر) تبقى الصفة المشتركة بينهما.

ـ الرّحلة الفادية في مدح فرنسة وتبصير أهل البادية (1878) :

جاءت هذه الرّحلة بعد 26 سنة من رحلتي ابن الصيّام وابن الشّريف، غير أنّها تمّت في نفس الظروف السّابقة، أي في عهد كانت الجزائر لا تزال فيه محتلّة، وفي وقت كان الاحتلال لا يزال يمضي في مخطّطاته الاستعمارية. قام بهذه

الرّحلة أحمد ولد قاد، باتّجاه باريس عام 1878، رفقة جماعة من أعيان العرب (الجزائريين)، للمشاركة في معرض دوّلي يقام بباريس، ويخبرنا ولد قاد أنّها المرة الثالثة التي يزور فيها فرنسا [42]، والأكيد أن استكشافه المسبق لباريس أثّر على أسلوب نص رحلته، فنحن لا نلمس فيه الاندهاش الشديد, والإطناب في وصف المسالك والمعالم العمرانية، كالّذي لمحناه في رحلة ابن صيام، فولد قاد، ركّز على إظهار القوّة العسكرية الفرنسية، ووصف الآلات الحربية والقدرات القتالية للجيوش، كما ركّز على العلاقات بين الجزائريين والفرنسيين.

يتجلى لنا من خلال هذا العنوان (الرّحلة الفادية في مدح فرنسة وتبصير أهل البادية)، أن ولد قاد قد أفصح وبصراحة عن مبتغاه من وراء كتابته لهذه الرّحلة، وهو التشهير بمحاسن الحضارة الفرنسية، والترغيب فيها [43]، وهذا ما يتّضح جليًا من خلال فصول كتابه، حيث خصّص الفصل الأول لذكر محاسن فرنسا وعلاقات أعيان العرب مع أرباب الدّولة، أمّا الفصل الثاني فقد خصّصه لوصف عجائب معرض باريس، وتحدّث في الفصل الثالث عن ضخامة عدّة

وتعداد الجيوش الفرنسية، وتنظيمها المذهل ، أمّا الفصل الرّابع فقد كان في توديع أعيان العرب لفرنسا عند خروجهم منها، ثم خصّص جزءًا منه سمّاه (عرض حال) للشكوى من حالة الجزائريين [44].

لم يركّز ولد قاد في بداية رحلته على وصف ما حوله من طرق ومباني وغيرها من المظاهر الأخرى، لأنّه كان مأخوذا شوقًا للوصول إلى باريس التي وصفها بأنها : " المدينة العظمى التي اجتمع بها ما افترق في غيرها ", ووصف حرارة الاستقبال التي حظي بها في هذه المدينة فقال: " واستقبلنا أهلها بالبشاشة فنزلنا بأحسن المنازل الرّفيعة..." فتركيز ولد قاد على وصف باريس، ومظاهر الحفاوة التي استقبل بها، جعلته يتغاضى عن وصف المدن الأخرى التي مرّ بها، سوى شعار الثّورة الفرنسية (حرّية، مساواة، أُخوّة)، الذي نُصّبت حروفه على جدران المدن، فقال عنه : " يا لها من كلمات يحقّ أن تكتب بماءٍ من ذهب، ويا ليت النّاس تعرف قدرها ... فلمّا استفسرناها وتأمّلناها ازدادت قلوبنا تعلّقًا بمحبّة الدّولة الفرنساوية ..." [45], لكن الملاحظ أن ولد قاد اكتفى وربما هو متعمّد في ذلك (لما يحمله هذا الشعار من معاني ترفض

الاستعمار)، بالإشارة إلى المعنى السطحي والظاهري لمعنى هذا الشعار، ولم يتعمّق في شرح مفهومه ودلالاته [46].

لا يلبث ولد قاد حتى يسقط صريع إعجاب شديد بما شاهده في معرض باريس من غرائب الصّناعات والاختراعات البديعة، وتكبر دهشته أكثر وهو يشاهد آلات التبريد ووسائل المواصلات، وهي مشاهدات عجيبة وقف أمامها باهتًا وحاول وصفها وتصويرها بكلّ ما تفنّن به قلمه، لإظهار قوّة الفرنسي المتفوّق، غير أن ولد قاد عاد وتفطّن إلى أسباب هذا التقدّم الذي كان نتيجة لاستعمال العقل وشيوع العلوم، وأراد أن يوصل هذه الفكرة إلى أبناء وطنه، وأن يعتبروا ممّا حقّقه الفرنسيين، " وقلت لنفسي اعتبر يا أحمد بن قاد ، وأخبر من يعتبر" [47].

غير أن الإعجاب الشديد الذي أبداه ولد قاد تجاه إنجازات فرنسا، وودّه لسياستها، لم يمنعاه من إبراز جانب من الصورة السوداء للسياسة الاستعمارية الفرنسية التي تدّعي الحرية والمساواة وتمارس في الجزائر الظّلم والاستبداد، وهو ما حمّله على التجرؤ على فرنسا، مخاطبًا إيّاها بلهجة غاضبة : " أفلا تكن مصالح العرب الذين عددهم يشتمل

على نحو الثلاثة ملايين تستحق النّظر أكثر من مصالح [الأروباويين]، الذين عددهم يشتمل على نحو المائتي وعشرين ألفاً ، وبأيّ وجه يحرم التماس الثواب منهم، للاستئثار معهم في المصالح العمومية إن كانوا في رفقة الأخوّة والمساواة كما هو الزّعم"، وهي نظرة ذات طابع تقييمي أملتها عليه المقارنة التي أتاحتها له الزيارات المتكرّرة لفرنسا، وفرضتها عليه حالة أبناء وطنه الذين بينهم وبين الفرنسيين بون بائن [48] , وكأن ولد قاد يحاول أن يقول بأنه كان مُجبرًا أثناء مدحه لفرنسا ووصف قوّتها .

وعمومًا فإن أفكار رحلة ابن قاد تتّفق مع أفكار رحلة ابن صيام وابن الشريف في الانبهار بالحياة الفرنسية، كما تتّفق معها في الدّعاية السافرة للاحتلال مع فارق طفيف في الانتباه الذي أبداه ولد قاد تجاه الفوارق بين الشّعب الجزائري الذي يعاني الظلم والمآسي، والشّعب الفرنسي الذي ينعم بالحرّية والرّقي.

ـ خصائص الرّحلة الجزائرية إلى فرنسا وأهدافها المشتركة:

لعلّ أهم ما يمكن استنتاجه من خلال إطّلاعنا على نصوص الرّحلات الجزائرية إلى فرنسا، والتي أشرف عليها

المحتل، هو طغيان طابع الانبهار والإعجاب القسري، والمصطنع بالمدنية الفرنسية على نصوص وأفكار أصحاب تلك الرّحلات، غير أنّ هذا الإعجاب الذي أبداه هؤلاء ليس قسريًا في مجمله، فما أدهش الرحّالة الشاميين والمصريين وغيرهم من الرحّالة العرب، دون قيد أو ضغط، فمن الطبيعي أن يثير الإعجاب في نفوس الجزائريين، غير أن الاختلاف يكمن في تمادي معظم الرحّالة الجزائريين آنذاك في الاندهاش بالتمدّن الفرنسي، وبالغوا في مدح الحكّام وغيرهم من رجال الإدارة الفرنسية, ودعوتهم إلى الخضوع للمستعمر [49].

كما طغت على نصوص هذه الرّحلات السطحية في الحديث عن مظاهر التمدّن الفرنسي والسرد المطوّل، فهم أفرطوا في وصف المباني والمسالك وركّزوا على وصف الآلات وعدّة الجيوش، دون الغوص داخل الحياة الفرنسية الاجتماعية والفكرية [50]، باستثناء محاولة ابن الشريف المتواضعة، التي حاول من خلالها تحليل بعض جوانب الحضارة الفرنسية، وإقامته لبعض المقارنات بين ما عاشه في بلاده الجزائر وما شاهده في فرنسا.

ومن المرجّح أن يكون سبب سطحية أفكار تلك الرّحلات ، والسذاجة في الوصف، مردّه قصر مدّتها، التي لا تتجاوز بضعة أيام، فجاءت أحجامها صغيرة مع اقتصارها على تسجيل مشاهدات عينية بسيطة ومحدودة, حسب ما حدّدته لهم الإدارة الفرنسية للاطّلاع عليه ومشاهدته, هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هؤلاء الرحّالة أعرضوا عن الغوص في تحليل مكوّنات الحضارة الأوربية، وأفكارها، وكلّ ما يمكن الاستفادة منه, بسبب تكبيلهم من طرف الإدارة الفرنسية فيما يقولون ومراقبة الأفكار التي عادوا بها وغربلتها، فكما سبق وأن أشرنا فإنّ الرحّالة لم يزوروا فرنسا بمحض إرادتهم ولم يكونوا متحرّرين في انطباعهم، لذلك لم يستطيعوا إبراز أحاسيسهم وأفكارهم الخاصّة، كما أن التركيز على وصف أشياء محدّدة جعل من أفكار رحلاتهم وصفية وبسيطة، خاصّة أنهم ركّزوا على وصف المخترعات وعدّة الجيوش والآلات واجتهدوا في ذلك، حتّى يبيّنوا قوّة فرنسا والحث على ضرورة الخضوع لها، وهذا هو طبعًا الهدف المسطّر والمرجو من خلال هذه الرّحلات [51].

بالإضافة إلى إجبار هؤلاء الرحّالة على مدح فرنسا والانبهار بحضارتها، فهم كذلك اندهشوا وأعجبوا بهذه الحضارة تلقائيًا، وإذا أردنا أن نعطي تفسيرًا لانبهارهم بكل ما يشاهدوه، فإنّنا نجد أن السبب يعود إلى كون ذلك المطّلع على تلك المشاهدات التي تعتبر جديدة بالنسبة له، قد جاء من مجتمع فقير وضعيف، واقع تحت نقمة الاحتلال، ولم تر عينه سوى الظّلم والدّمار والفقر الذي سبّبه ذلك المحتل، ثم انتقل من ذلك الوضع ليفتح عينه فجأة على مشاهدات مدهشة، غريبة لديه وغير موجودة في وطنه، ولم يعشها من قبل، وهو ما جعله يحسّ بالفارق الكبير الذي سبّب له عجزًا ذاتيًا هائلاً، فتندهش نفسه ويذهل عقله بمظاهر التمدّن الفرنسي، وهو اندهاش عبّر عنه بعفوية في نصوص رحلاته [52].

ما يمكن استخلاصه كذلك من خلال استقراء نصوص رحلات هؤلاء، هو قصدية تلك الرّحلات، أي أنها موجّهة لتحقيق أغراض معيّنة، مما يطرح تساؤلا عمّا يمكن أن تحصل عليه السلطات الفرنسية، وما ترجوه من وراء تحمّلها لنفقات تلك الرّحلات، والتخطيط لها ورسم مسارها، وتوجيه صاحب الرّحلة من خلال دفعه إلى زيارة أماكن معيّنة، وجعله

يتمهّل أو يسرع عند محطّات محدّدة، ثم تتابع أفكار كاتب تلك الرّحلة، وما يصدر عنه من مواقف وآراء بعد عودته من سفره، فتقوم بنشرها إن كانت تتلاءم مع أهدافها المسطّرة لها مسبقًا [53]، وهذا ما يفسّر وجود ذلك الخطاب الخفيّ في نصوص هؤلاء الرحّالة، داخل الخطاب السطحي، وهذا الخطاب الخفيّ يهدف إلى إظهار قوّة فرنسا، وترهيب قرّاء الرحلة (الجزائريين)، بقوّة جيوشها وصناعتها وبالتالي وجوب الخضوع لها وطاعتها.

هي إذن عوامل حدّدت خصائص هذه الرّحلات، ومواضيع نصوصها وطبيعة نظرتها للآخر، فتحديد مسار الرّحلة ومدّتها ومهامها، يجعلها تكتسب خصائص معيّنة، تميّزها عن بقية الرّحلات المعاصرة، لأنّه لو نستقرئ كتب تاريخ الرّحلة بشكل عام نجد أنّه كلّما تحلّى صاحب الرّحلة بالخلوّ من الأغراض والمهام التي تقيّده، وكلما تمتّع بالحرّية في تنقلاته في البلد الذي زاره، كلّما زادت الرّحلة تميّزًا عن غيرها، وزادت مصداقيتها وكثرت فوائدها، وهو ما لم يحدث مع الرّحلات الجزائرية التي أشرف عليها الاحتلال, التي بدا فيها الهدف الاستعماري جليًّا، فهي وُجّهت لتنفيذ

ذلك الهدف، وبالتالي تجرّد فيها الرحّالة من احتكامه لرؤيته الخاصّة في مشاهداته، والنّتائج التي كان من الممكن أن يعود بها لو أنه زار فرنسا طواعية، ومن تلقاء نفسه، وتمتّع بالحرية في تنقلاته, لهذا غابت الصورة الأصلية التي تُرجى من الرّحلات بشكل عام، وغابت عنها الأهداف النهضوية الناتجة عن الأفكار التي اطّلع عليها الرحّالة والتجارب التي عايشها هناك، وحلّت مكانها صورة أخرى تتضمّن مخطّط جيوسياسي وإيديولوجي فرنسي دقيق المرامي والأهداف [54].

رغم تركيز أصحاب هذه الرّحلات في تدوين رحلاتهم على الوصف البسيط والسّاذج، وانبهارهم بمظاهر الحياة الفرنسية وبساطة أفكارهم، إلا أنّهم أظهروا في نصوصهم نوعًا من القدرة على التحليل والنّقد، كما أن انبهارهم بالآخر لم يفقدهم الوعي بأنفسهم، فهم أدركوا ذاتهم العربية الجزائرية التي لم يغيّبوها أثناء حديثهم عن الآخر (الأوربي المبهر)، فنجدهم يستعملون في عدّة مواقع ألفاظًا تُبيّن انتمائهم الذّاتي، مثل قولهم (نحن العرب، أمّة العرب...)، وهو ما يدل على وعيهم العفوي بانتمائهم القومي العربي، علماً أن مفهوم القومية العربية لم يكن واضح المعالم في ذلك العهد [55]،

كما أدركوا انتماءهم الجزائري، فهم غالبًا ما يستعملون مصطلح (برّ الجزائر، بلادنا، بلاد الجزائر...)، وبهذا فإن انبهار الضّعيف بالقوي، وتماهي المهزوم بالمنتصر، لم يُمح ذات الرحّالة العربية الجزائرية بشكل كلّي.

كما أظهر هؤلاء، ولو بشكل ضعيف، قدرة على تحليل بعض مشاهداتهم، وبعض المفاهيم التي اطّلعوا عليها في فرنسا، فنجدهم تنبّهوا إلى عوامل قوّة الآخر وأسباب انهزام وتخلّف أمّتهم، وأدركوا أن ذلك الفرنسي الذي أبهرهم كانت له عوامل ساعدته على التفوّق والتطوّر. وهذا الحس التحليلي لمسناه مثلاً عند ابن صيّام الذي تفطّن إلى عوامل تقدّم أوربا، وبأنّه لا يرتكز على جانب واحد، بل هوّ مرتبط بين كافّة جوانب الحياة، من اهتمام بالعلوم والاختراعات، وشيوع العدل والحرّية، وإقامة تنظيمات سياسية واجتماعية محكمة، وباشتراك كل هذه العناصر مجتمعة تحقّق التقدّم الأوربي المبهر[56]، كما تمكّن ولد قاد من وضع يده على جرح بلده وتحديد أسباب تخلّفه، والتي أرجعها إلى إهمال العلوم التي هيّ أساس أي نهضة، وإلى التعصّب الدّيني وما نتج عنهما من تخلّف حضاري بعد أن كانت بلاده ذات شأن

حضاري كبير في القرون السابقة، وأكّد بأن بلاده مؤهلة لأن تواكب الحضارة الغربية إن حقّقت أسبابها، فالحضارة ليست محصورة لدى قوم دون الآخر[57] - غير أنّه لم يشر إلى السبب الأساسي في جراح بلاده وهوّ الاستعمار الفرنسي -. كما استوعب ابن الشريف ركائز قيّام الحضارة المتمثّلة في شيوع العدل والعلم، فهما أساس التقدّم والملك [58]، وهو أمر يدحّض الزّعم الفرنسي القائل بأن العقل العربي (الجزائري) غير مؤهّل لاستيعاب أركان النهضة الحديثة, بل أنّ السبب الحقيقي يعود إلى عدم توفّر الظّروف المواتية لتحقيقها.

ومن جهة أخرى, فإن مدح هؤلاء الرحّالة لفرنسا، لم يمنعهم من انتقاد سياستها الاستعمارية (ولو بشكل غير مباشر)، والأدهى من ذلك تجرّأ البعض على فرنسا، فهذا مثلاً ولد قاد أشار إلى اللاّعدالة الموجودة بين الشعبين الجزائري والفرنسي، وعبّر عن ذلك الوضع بلهجة غاضبة، ففضح من خلالها سياسة فرنسا التي تدّعي الحرّية والمساواة لفظًا، وتمارس الظّلم والاستبداد فعلاً [59].

من خلال هذا يتبادر إلى أذهاننا التساؤل التالي: كيف أمكن لهؤلاء الذين أطنبوا في مدح فرنسا، وتمادوا في الانبهار بها أن تكون لهم بعض المواقف النقدية للسياسة الفرنسية التي تسبّبت في سوء أحوال بلدهم الجزائر؟ ، والجواب هنا على الأرجح هو أنّهم كانوا يموّهون فرنسا من خلال إخفاء انتقاداتهم وأفكارهم تحت غطاء مدحها خوفًا من سخطها عليهم، واتّقاءًا لشّر غضبها منهم [60]، وهوّ ما يفسّر كذلك تجنّبهم للخوض والتعمّق في دراسة شعار الثورة الفرنسية (الحرّية، المساواة، الأخوّة)، فهم يشيرون إليه دائمًا بشكل سطحي، وذلك لما يحمله هذا الشعار من خطر تبنّيه من طرف الجزائريين، وجعله شعارًا لهم في محاربة الاستعمار الفرنسي [61].

جعل هذا الخوف والخضوع لدى هؤلاء الرحّالة بأن لا يدعوا إلى نهضة مستقلّة يضطلع بها أبناء الجزائر، بل هم أرادوا أن تتكفّل فرنسا بهذه المهمّة، فحالة هذا الضّعف والوهن للذّات الجزائرية آنذاك جعلتها لا تلتمس طريق نهضتها في تلك الظروف، بل فقط كانت تبحث عن غطاء

تنضوي تحت لوائه، يُخرجها من معاناتها، وهذا الغطاء طبعًا -حسب هؤلاء - يتمثّل في فرنسا [62].

وبصفة عامّة يمكننا القول بأن هذه الرّحلات غلب عليها طابع الانبهار بما شاهده أصحابها، الذين حضرت لديهم الصورة اللاّمعة والبرّاقة لفرنسا، متناسين صورتها الاستعمارية والتي مارست بطشًا وظلمًا في وطنهم، فوقعوا بذلك في حبّ جارف لمظاهر الإنسانية الفرنسية، التي لم يدرك هؤلاء بأنّها غير قابلة للتحويل والتجسيد في الجزائر في ظلّ الممارسات الاستعمارية [63].

وفي الختام، تبقى لتلك الرّحلات أهمية توثيقية بالغة، لما فيها من دلالات هامّة عن وضع الجزائر، ولمحة تاريخية عن علاقات الجزائريين بفرنسا في ذلك الوقت، وطبيعة نظرتهم إليها، كما أنها تبقى رحلات فريدة من نوعها، تمّت تحت ظروف محدّدة، وتمخّضت عنها خصائص مشتركة، وتختلف طبعًا عن بقية الرّحلات الجزائرية الأخرى (رحلة الأمير عبد القادر، حمدان خوجة...).

نستنتج أن الرّحلات التي تمّت قبل الاحتلال، وهيّ التي تمّت من دون توجيه فرنسي، كانت أكثر نضجًا في فهم

واستيعاب الحضارة الأوربية، وأكثر تعمّقًا في إدراك مكوّناتها وإحاطة بعوامل نهضتها، وكانت أدقّ استنتاجًا لإيجابياتها وسلبياتها، بالإضافة إلى أنّ إعجاب أصحابها بالتمدّن الأوربي كان يصبّ في رغبتهم في التجديد والبحث عن مشروع نهضوي يرقى بالعالم الإسلامي إلى مصاف الحضارة الحديثة، ومردّ ذلك إلى أنّ أصحابها كانوا متحرّرين في أفكارهم وتنقّلاتهم.

وعلى العكس من ذلك, فإنّ الرّحلات التي أشرف عليها الاحتلال، والتي وظّفها لتصوير الجوانب المشرقة والإيجابية للحضارة الفرنسية، كان أغلب أصحابها ضعيفي التكوين الثقافي، وأقلّ إطّلاعًا على الفكر الحديث، فأغلبهم شيوخ قبائل وقيّاد، فجاءت أفكارهم ساذجة وبسيطة، لأنهم لم يتعمّقوا في فهم مكوّنات الحضارة الأوربية، فحرمتنا تلك الرّحلات من الفوائد التي تُرجى عمومًا من الرّحلات، فبدلاً من أن تحقّق فوائد الاعتبار، طغى عليها طابع الانبهار والتبعية.

الهوامش:

1) ـ عميراوي حميدة، " حمدان خوجة، حياته وآثاره "، مجلّة الثقافة، منشورات وزارة السياحة والثقافة، الجزائر، عدد 90، 1985، ص. 100 ـ 101.

2) ـ سعد اللّه، تاريخ الجزائر الثقافي، ج.1، الشركة الوطنية للنّشر و التوزيع، الجزائر، 1979، ص. ص. 35 ـ 37 ـ 146.

3) ـ عميراوي حميدة، نظرة حمدان خوجة إلى الأخر (أوربا نموذجًا)، في كتاب الشّرق و الغرب، في: كتاب الشرق و الغرب في مدوّنات الرحّالة العرب والمسلمون، اكتشاف الذّات للآخر، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2005، ص. 456 ـ 457.

4) ـ الحسين محمّد بن السعيد الشّريف الورثلاني، ولد عام 1713م ببني ورثيلان، رحل إلى المشرق مرّتين بقصد الحج، وسمَّى رحلته (نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ والأخبار)، أو (الرّحلة الورتيلانية)، توفي عام 1779م.

5) ـ أبو راس النّاصر الجزائري، ولد بمعسكر عام 1737، زار تونس، مصر، مكّة والشام، له مخطوط حول هذه الرّحلة سمّاه (فتح الإله ومنته في التحدّث بفضل ربّي و نعمته)، توفيَّ عام 1822.

6) ـ الحاج ابن الدّين الأغواطي، ولد بالأغواط ، قام برحلة استكشافية كلّفه بها (وليام هودسون)، مساعد القنصل الأمريكي في الجزائر مقابل مبلغ مالي، تمّت هذه الرّحلة عام 1826م،

واستمرت حتى عام 1829م، زار من خلالها الأغواطي السودان وشمال إفريقيا، وسمّيت بـ (رحلة الأغواطي في شمال إفريقيا و السودان والدّرعية).

7) ـ عبد الله الرّكيبي، تطوّر النّثر الجزائري الحديث (أدب الرّحلات)، دار الكتاب العربي للطّباعة والتوزيع والنّشر، الجزائر، 2009، ص. 55 ـ 57.

8) ـ عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 2009، ص. 33.

9) ـ فلاديمير ماكسيمنكو، الأنتليجانسيا المغاربية (المثقّفون، أفكار ونزاعات)، ترجمة, عبد العزيز بوباكير، دار الحكمة، الجزائر، 1984، ص. 24.

10) ـ محسن خالد، نزهة المُستَعمَر في ديار المُستَعمِر (الأنا المغيّبة وراء المنفستو السياسي للآخر)، في: كتاب الشرق و الغرب في مدوّنات الرحّالة العرب والمسلمون، مرجع سابق، ص. 485.

11) ـ نفسه, ص. 486.

12) ـ عمر بن قينة، اتجاهات الرحّالين الجزائريين في الرّحلة العربية الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص. 245.

13) ـ أبو القاسم سعد الله، محمّد الشاذلي القسنطيني (1807 ـ 1877)، دراسة من خلال شعره و رسائله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص. 23.

14) - بن قينة، مرجع سابق, ص. 245.

15) ـ بن قينة، الشكل والصورة في الرّحلة الجزائرية الحديثة، دار الأمّة للطباعة والنّشر، الجزائر، 1995، ص. 167.

16) - كلوزيل (Clauzel Bertrand)، 1772 – 1862، مارشال فرنسي، أُرسل في أوت 1830 إلى الجزائر لقيادة الجيش الفرنسي (الجيش الإفريقي) خلفا لمواطنه بورمون، كان من أبرز أنصار الاحتلال الكامل للقطر الجزائري، وهو ما تثبته سياسته التوسعية، فبمجرّد وصوله إلى الجزائر نظّم حملة على البليدة والمدية ...، كما يعتبر من أبرز مؤسّسي الإدارة الاستعمارية في الجزائر، وفي عام 1831 عُوّض بالجنرال بيرتزان، ثم عاد إلى الجزائر مرّة ثانية عام 1835 بصفته الحاكم العام للشؤون الفرنسية في شمال إفريقيا، فواصل وبطموح سياسته التوسّعية، وبعد فشله في حملة قسنطينة عام 1837، تمّ عزله عن قيادة الجيش الفرنسي بالجزائر . أنظر:

- Narcisse, Faucon, le Livre d'or de l'Algérie, Histoire Politique, Militaire, Administrative, Tom.1, Challamel et Cie Éditeur, Paris, 1889. PP. 173 – 175 .

17)- Hichem Djait, la personnalité et le devenir Arabo – islamique, Seuil, Paris, 1974, p .31.

18) ـ سعد الله، مرجع سابق، ص 24.

19) ـ هي صحيفة رسمية تصدر باللغة العربية والفرنسية، صدرت عام 1847 في الجزائر، وتعتبر أوّل صحيفة تصدر باللّغة العربية في الجزائر، وهي بمثابة اللّسان الرسمي لإدارة الاحتلال الفرنسي،

وأنجع وسيلة لخدمة مصالحه الاستعمارية، استمرت في الصدور إلى غاية 1927. أنظر:

- الزبير سيف الإسلام، تاريخ الصحافة في الجزائر، ج4، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص. 45.

20) - نشرت جريدة المبشّر هذه الرّحلة في أعداد مختلفة من عام 1852، أما النّسخة الأصلية للرّحلة فهي متواجدة بالمكتبة الوطنية الفرنسية، وهي التي اعتمدها خالد زيادة في كتابه. ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس, سليمان بن صيّام 1852, أحمد ولد قاد 1878, محمّد بن الشيخ الفكّون القسنطيني 1902, دار السويدي للنّشر والتوزيع, أبو ظبي,2005.

21) - ينحدر من بلدة مليانة، أمّا تاريخ ولادته مجهول، ينتسب إلى عائلة غنية ومعروفة بولائها للحكّام الفرنسيين، تولّى عدّة مناصب إدارية وسياسية قرّبته من إدارة الاحتلال، توفي عام 1896. أنظر:

- الرّكيبي عبد الله: تطوّر النّثر الجزائري الحديث, مرجع سابق, ص. 69.

22) - راندون (Randon-Jacques Luis-Cèsar Alexandre) 1795 – 1871, مارشال فرنسي, عُيّن مديرًا للشؤون الجزائرية في وزارة الحرب الفرنسية, ثم عُيّن حاكما عامّا للجزائر عام 1851 إلى غاية 1858. وإلى جانب سياسته التوسّعية والعسكرية, عُرف بتنظيمه للإدارة الفرنسية في الجزائر, وإنشائه لفئة من الأهالي (الجزائريين) موالية للاحتلال الفرنسي (les Zouaves), وإنشاء المدرسة العربية. أنظر :

- Narcisse, Faucon, op. cit, PP. 507 – 509.

23) ـ القوفرنور، يقصد بها le gouverneur أي الحاكم.

24) ـ سليمان بن صيام، الرّحلة الصيامية (رحلة سليمان بن الصيام إلى بلاد فرنسة)، تحقيق وتقديم خالد زيادة، في كتاب: ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي, 2005, ص.25.

25) ـ ابن صيام، مصدر السابق، ص. 23 ـ 45.

26) ـ نفسه، ص. 30 - 31.

27) ـ بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث, مرجع سابق, ص. 117.

28) ـ ولد بضواحي بجاية عام 1826، ينحدر من أسرة تنتمي إلى إحدى الطرق الصوفية الموالية للإدارة الفرنسية، تمتّع بثقافة مزدوجة عربية إسلامية وثقافة فرنسية، توفي عام 1896، أنظر:

ـ الركيبي، مرجع سابق, ص.58.

29) ـ محمّد السّعيد بن علي الشريف، " الرّحلة الخيرية فيما عاينه ناظمها ببرّ فرنسة "، جريدة المبشّر، عدد 130، 30 جانفي 1853.

30) ـ الرّكيبي، مرجع سابق, ص. 58.

31) ـ ابن الشريف ، مصدر سابق، عدد 130.

32) ـ نفسه، عدد 131، 15 فيفري، 1853.

33) ـ الركيبي، مرجع سابق, ص. 59.

34) - ابن الشريف، نفس المصدر ، عدد 34، 30 مارس 1853.

35) ـ يحياوي مسعودة، " الجزائر من خلال المنظار الاستعماري "، مجلّة الدّراسات التاريخية، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، عدد 07، 1993، ص. 156 ـ 157.

36) ـ نفسه، نفس العدد.

37) ـ الركيبي، مرجع سابق, ص. 62.

38) ـ ابن الشريف، مصدر سابق، عدد 135، 15 أفريل، 1853.

39) ـ الركيبي، مرجع سابق, ص. 63.

40) ـ ابن الشريف، عدد 138، 15 جوان 1853.

41) ـ نفسه, عدد 140، 30 جوان 1853.

42) ـ أحمد ولد قاد، الرّحلة الفادية في مدح فرنسة و تبصير أهل البادية، في كتاب ثلاث رحلات جزائرية، ص. 49 ـ 51.

43) ـ محسن خالد، مرجع سابق, ص. 493.

44) ـ ولد قاد، مصدر سابق, ص. 51 ـ 55 , 55 ـ 61 , 61 ـ 64 , 64 ـ 70.

45) ـ نفسه، ص.51 - 53.

46) ـ بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث ... ، مرجع سابق, ص. 118.

47) ـ ولد قاد، مصدر سابق, ص. 65 ـ 66.

48) ـ نفسه، ص. 65 ـ 70.

49) ـ خالد زيادة، ثلاث رحلات جزائرية ...، مرجع سابق, ص. 14.

50) ـ نفسه، نفس الصفحة .

51) ـ الركيبي, مرجع سابق, ص. 72.

52) ـ جمال ملحم، دهشة الزائر التابع بحضارة السيد المستعمر، في كتاب الشرق والغرب، مرجع سابق، ص. 481.

53) ـ محسن خالد ، مرجع سابق, ص. 488.

54) - نفسه، ص. 485 - 487

55) ـ جمال ملحم، مرجع سابق, ص. 478.

56) - ابن الصيام, مصدر سابق, ص. 33 – 40.

57) - ولد قاد ، مصدر سابق, ص. 53 - 55.

58) - ابن الشريف, مصدر سابق, عدد 130 – 131.

59) - ولد قاد, مصدر سابق, ص. 65 – 70.

60) - ملحم, مرجع سابق, ص. 480.

61) - محسن خالد, مرجع سابق, ص. 489.

62) ـ ملحم، مرجع سابق, ص. 478 ـ 479.

63) ـ بن قنية ، في الأدب الجزائري ... مرجع سابق، ص. 119.